



مثل كل الخرافات التي بنتها روسيا، في عهد القيصر فلاديمير بوتين، عن حجم تأثيرها ومدى فعاليتها، لا تخرج القضية السورية عن محيط عالم الوهم المؤسس على دعاية سياسية تنطوي على بعض أشباه حقائق وتكمل بقية بنيتها بسردية رغبوية، لا تختلف عن سردية الخرافات سوى أن الأخيرة تدّعي أنها جرت في عالم مضى في حين أن سردية موسكو تحكي عن عالم سيأتي تحدّد روسيا ليس ملامحه وحسب بل شخوصه وميادينه وطبيعة النقلات التي ستحصل على رقعته. نحن نستطيع إزاحة بشار الأسد، لكننا يستحيل أن نفكّر في إجراء هذا الأمر في الوقت الحاضر، وقد يستغرق ذلك سنوات.

#### والسؤال: من هذه الرسالة؟

بالنسبة إلى الأطراف الخصوم لروسيا يتوجب عليهم أن يأخذوا الشطر الأول ويبنوا سياساتهم تجاه روسيا فوق هذا المدماك، وبناءً عليه يجري تأسيس مناخ تفاوضي بما فيه من أوراق تفاوض للأخذ والعطاء مع موسكو وتحديد العناصر التي يجب التنازل عنها مقابل هذا الطرح ونوع المكافأة التي ستحصل عليها موسكو بالإضافة إلى إعادة التفكير بصياغة انماط الصراع في سوريا وشكل التحالفات.

أما الشطر الثاني من التصريح فلا يحمل أهمية كبرى وهو ليس أكثر من لزوميات التفاوض، أو حتى مجرد لازمة تقال في مثل هذه المناسبات.

بالنسبة إلى حلفاء نظام الأسد، فإن الكلام الروسي واضح ولا لبس فيه: لن نتخلى عن بشار الأسد لسنوات مقبلة، وعلى ذلك فإن عليهم الآن أن يعيدوا ترتيباتهم اللوجستية والنفسية حيث لم يعودوا محكومين بأفق زمني قصير يثبتون خلاله أوضاعهم وإنما في السياق سوف يتغير والأمور ستأخذ منحنيات مختلفة.

إنما كل الجهود يجب أن تكرّس من أجل تعطيل عملية السلام الجارية والاستعداد للحرب الطويلة تحت مظلة الحماية الروسية، الشطر الأول لن يعني كثيراً هنا، ليس أكثر من محاولة للتغطية على الصدمة التي يتضمنها الجزء الآخر من

يقع هذا النمط من التصريحات السياسية بين التذاكي السياسي الذي يحاول جر الأطراف الأخرى إلى فخاخ تفاوض غير ملزم، وبين الذهاب بعيون مفتوحة إلى الدخول في مأزق الحرب السورية التي طالما تحاول روسيا إدارتها عن بعد وتجنب الغرق في مستنقعها، وبدل أن تجني روسيا ثمار هذا التذاكي من طرف الأزمة، وفق تقديرات خبرائها، فإنها تضع نفسها بين مطرقة الخصوم الذين سيتعاملون بجدية مع كلامها بأنها تستطيع تنحية بشار الأسد وأن كل مجردة سيرتكبها بعد هذا التاريخ وكل خراب سيحصل في سوريا ستكون شريكة فيه لأنها كانت تستطيع وقفه ولم تفعل، وبين سندان حلفاء النظام الذين سيطّلبونها بالوفاء والتزامها بضمانبقاء الأسد لسنوات وسيحثونها على تقديم ترجمة فعلية على الأرض، ذلك أن استمراره يتطلب مساعده في السيطرة على كل سوريا وفهما يرغب الأسد ويريد.

لكن دع عنك ما تسوقه روسيا عن نفسها وهو يدخل في تقنيات بناء السردية أكثر من كونه توصيفاً حقيقياً لحجم التأثير والفعالية.

هل تملك موسكو بالفعل مفاتيح التحكم بماكينة الحرب السورية وتستطيع تاليًا وقف آليات تشغيلها والسيطرة على مفاصلها؟

الواقع يقول إن رقعة الشطرنج السورية أعقد من قدرة لاعب أو إثنين على التحكم بنقلاتها، وإن أكثر اللاعبين تأثيراً لا يستطيع تحريك أكثر من عدد محدود من الأحجار، وأن اللعبة لو كانت بالسهولة التي تدعى بها روسيا لانتهت قبل حضورها وإنخراطها بجرياتها، ثم إن التأثير والفعالية الروسية تنحصران ضمن قطاعات محددة ولا تتجاوزانها، تماماً مثل بقية اللاعبين الذين لديهم قوة وفعالية في قطاع معين ويفتقدون أي تأثير في قطاعات ومناطق أخرى.

الكلام الروسي يثبت وجود إشكالية لم يلتقطها الخبراء الروس جيداً وأوهما إدارتهم بها، وهي حجم الفوضى التي تتطوّي عليها الحرب السورية، وقد وصل إلى حد أن من صنع خريطة الفوضى في سوريا لم يعد يعرف مسارك الطرق فيها، حتى بشار الأسد نفسه الذي يتحدث الروس عن إزاحتة لا يملك هو ورجاله السيطرة المطلقة على العاصمة دمشق، حيث وضمن مساحة لا تتعدى عدداً محدوداً من الكيلومترات بجانب قصره توزع السيطرة بين أفرع مخابراتية سورية عدّة، وميليشيات لبنانية وعراقية وأفغانية وأحزاب ومتظوعين من البلاد العربية، وكل منطقة لديها إدارة وخطط وأوامر منفصلة عن الأخرى، وفوق هذا وذاك، لديها أهداف وألوبيات ليست واحدة، يجمعها فقط عدو مشترك، لكنها تختلف في كل شيء، وهي ليست ملتزمة بالحل السياسي في سوريا، كما أنها استطاعت وبفضل الفترة الزمنية التي قضتها في مناطق تواجدها ونفوذها تشكيل بيئات حاضنة وموالية لها وتجذّرت هي نفسها في الصراع وغدت جزءاً من نسيجه.

هل تستند روسيا إلى واقعة مفاجأة بشار الأسد بدخول وزير دفاعها سيرغي شويغو قصره من دون علمه؟ عليها أن تتذكر أن قاسم سليماني دخل في التاريخ نفسه إلى حلب وخرج منها من دون معرفة الأسد أيضاً، كما أن الأسد نفسه لا يعلم شيئاً عن القادة الأفغان والباكستانيين الذين يحكمون قطاعات واسعة من دمشق، فذلك ليس مؤشراً كافياً عن مدى تأثير الروس وسطوتهم في سوريا.

الواقع أن روسيا ربما تستطيع بعد سنوات من الآن أن يكون لها حجم التأثير والفعالية الذي تدعّيه، لكن شرط أن تكشف انخراطها أكبر بكثير مما عليه الآن، وبعد أن تعمل على تفكيك خريطة الفوضى الهائلة في الميدان السوري، وبعد أن تكتبد عناه وجهأً لا يستطيع أحد تقديرهما، أما في هذه اللحظة فإن خباءها لا يستطيعون التحكّم بأكثر من بوابات مطار حميميم.

الحياة اللندنية

المصادر: